صيد "الحلزون"

زهيرة البيلي

دخل رجل سويسرى مركز بوليس نيوشاتل بالقرب من الحدود . وطلب مقابلة الضابط المسئول . كان الرجل ممدود القامة لايحمل أية صفة من صفات المقاتل أو المغامر . لكن شاءت الظروف أن يصبح الرجل بطل معركة تحولت إلى صراع دولى .

هذه معركة يجهل القارئ كل شئ عنها . لكن آن الاوان أن يعرف تفاصيلها . جاء الرجل النحيف الذى حبك الخيوط يحكى للضابط أنه عندما كان يقوم بالصيد هذا الصباح سمع صوتا ينادى عليه من على نفس شاطئ النهر . كان الصوت لرجل فرنسى ولكن داخل الحدود السويسرية . جاء الرجل الفرنسى الصيد « الحلزون » (حيوان من الرخويات يؤكل ويعيش داخل صدفة) .

سأله الصياد السويسرى لماذا هو جريء ؟ فقد كان الخوف والهم واضحين عليه . أوضح الصياد الفرنسى أن الأمور لاتسير على ما يرام . وأنهم يريدون طرده من السيارة النقل القديمة التى يقيم بداخلها مع أسرته كما أنه يعانى من أزمة مالية . ويخشى أن تهجره زوجته .

نصحه الصياد السويسرى بأنه سبق له أن عانى من ظروف مشابهة ولكن الأفضل فى هذه الأحوال أن يعود إلى بيته لتناول كأس . وفى اليوم التالى مع إشراقة صباح جديد . تسير الأمور على أحسن وجه . لكن الصياد الفرنسى كان يخشى العودة الى بيته فلا يجد زوجته فى انتظاره . لذلك راودته فكرة الانتحار . طلقة واحدة فى الرأس وينسى كل شئ بعد هذه الشكوى عبر الصياد الفرنسى النهر عائدا الى بلاده ولم ير سوى لحظات حتى سمع عيارا ناريا . فجرى الصياد السويسرى إلى شاطئ النهر . وأخذ ينادى على زميله الذى لم يجب أبدا .

ولم يستطع الصياد السويسرى عبور النهر إذ كان من السهل على الفرنسيين العبور إلى سويسرا . لأنهم يسبحون لأنهم بالتوسع داخل أراضى الغير . الشئ الذى لايسمح به السويسريون لأنفسهم بالقرب من الحدود الفرنسية - السويسرية امتحان رجل البوليس نيوشتل من الفلاحين . استخدمه فى نحت المنابر بين أشجار الغابة الكثيفة . خلف الرجلين سار طبيب وقع رجل بمظلوته غير مبال بتعلق معطفه الواق بالنباتات الشوكية المنتشرة فى المنطقة .

أطلقت السكرتارية العامة للانتربول برجل البوليس الفرنسى فى تلك المغامرة المثيرة التى شاركه فيها على الجانب الآخر من الحدود ضابط سويسرى . تمتع الرجلان بلياقة فارعة . بدا عليهما الحذر والحزم . الدقة فى العمل بلا هوس أو غرور . عندما يشتد قيظ الصيف على الوجه الصارم يظل الشعر حاملا تلك العلامة الدائرية الفضية طويلة . لا يفرق بينهما شئ إلا أن الأول فرنسى والثانى سويسرى . واحد يرتدى الزى الرسمى الأخضر والآخر يرتدى الزى الأزرق . فجأة عندما صرح المرشد الريفى فى دهشة انتفض رجل البوليس فى ذعر .

جثة راقدة ! ! فى أعلى الخيمة جرح بدا واضحا تماما . الدماء تخطت على أوراق الشجر الجافة . ولكن مع ذلك وضحت آثار بعض الخطوات متراجعة سقطت السقوط . كان الصياد الفرنسى يرتدى حذاء طويلا من الكاوتشوك . ويتطلعون من الجاردين المطرق ويلوفرا وسترة رياضية . لاشئ يثير الدهشة سوى أوراق الشخصية التى عثر عليها فى الجيب الداخلى للسترة . كان الرجل فى الثالثة والأربعين من عمره . ولد و يقيم لاشئ يبعث على الغرابة سوى الأسباب التى قادت الصياد إلى هذا المكان . على بعد خطوات من الجثة تم العثور على دار فارغة بها بعض الثقوب الصغيرة . هذه الدار التى يحملها صيادو « الحلزون » . وعلى بعد خطوات أخرى عثر على حقائب معدنية أثارت اهتمام رجل البوليس . حقيبة قطرها ٣٥ سنتيمترا .

من الجانب الفرنسى بدأ رجل البوليس التحقيق الذى بدأ يستمر فى دائرة مفرغة . عرف القتيل عندما أكد أنه صيادا معروفا . أرخائها للتوابل

دافع الصيد . عندما رأت زوجته وأطفاله الخمسة مقبلة عليهم فوق الثلاثة . أخذت المرأة تصرخ مثل المخترقات فى الأزمنة البعيدة . أخذت تختنق جثة الزوج . تغسلها بالبكاء كما لو كانت دموعها سوف تعيده إلى الحياة . طبقا لأقوال الزوجة بين أن الزوج ذهب بمفرده للصيد فى الساعة السابعة صباحا . الصياد لايعيش مأساة عائلية حقيقية . وبين دهشتين قالت الأرملة إن زوجها كان يحمل معه بندقية . البندقية التى عثر عليها البوليس بالفعل وسط الأشجار الكثيفة وليس بعيدا عن الجثة . لم يكن بالبندقية سوى طلقة واحدة لم تستخدم . فهل هى عملية انتحار بالفعل ؟

باستثناء أن الأرملة كانت تخون زوجها الصياد ثلاث مرات فى الأسبوع . وأن أحد أبنائه مصاب بالتخلف الذهنى . والأخر مريض بالحصبة . وباستثناء أنه متقل بالديون وأن البنك يرفض التعامل معه . وإذا استبعدنا أنه تأخر فى دفع إيجار المسكن ثلاثة أشهر وأنه مهدد بالطرد . خلاف هذا كله فهو لا يعانى من أية متاعب محددة . الا أن عملية جمع حيوان « الحلزون » كانت تأتى له بالعائد الكبير . فالحيوان الواحد يباع بحوالى ٢٥ سنتيما مع تزاحم وتزاحم هذه المطرقعات كلها لم يتضح أمام البوليس سبب واحد أو دافع واحد وراء القتل أو الانتحار .

وبعد فحص الطلقة التى أخرجت من جثة القتيل تبين أنها ليست من نفس عيار بندقية الصياد الفرنسى . لذلك رأت الغرفة الفكرية الفرنسية ضرورة استجواب الزائر السويسرى لأنه يعتبر حتى الآن الشاهد الوحيد . ورغم هذا كله باتصال بالسكرتارية العامة للانتربول زيورخ .

من الجانب السويسرى . بدأ أن العملية بدأت تتخذ الطابع الدولى . وصل محقق سويسرى خصيصا من زيورخ . الأمر الذى تطلب من الصياد السويسرى إعادة أقواله . الشئ الذى زاد من إنكاره للتعبير لاشتراكه فى مقتل الصياد الفرنسى .

وفى الجانب الأخر من الحدود يمتد ضابط البوليس الفرنسى أحد رحاله ليعيد تمثيل الجريمة ويقوم بدور القتيل أمام الخبير الجديد الذى جاء أيضا خصيصا من باريس . ليكون كل هذا أقل مثل للتعاون بين أجهزة الأمن بعضها وبعض . من الجانب الفرنسى يبقى الرجل الذى يؤدى دور الضحية ليخلع سترته . بينما أخذ الصياد السويسرى يكرر : « ولكن لماذا أقتله ؟ لم أره فى حياتى من قبل ؟ » .

حقيقة أنه لقتل إنسان ما . فلابد من دافع أو باعث . واعطاء الباعث هنا عبء كبير . لذلك فكر الضابط الفرنسى على الفور فى تلك الخلفة المعدنية التى يبلغ قطرها ٣٥ سنتيمترا والتى تم العثور عليها بجانب الجثة . كان عليه ان يعرف استخدام هذه الخلفة . الخلفة التى أصبحت فى الأخيرة الأولى . بعد أن تم تصويرهامن الواجهة والجنب . أرسل الفرنسا طريقا للسكرتارية العامة لانتربول زيورخ . تخص فى عبارة واحدة : فيم تستخدم هذه الخلفة ؟ » .

كان رجال البوليس السويسرى شديدى الدقة لايميلون اطلاقا الى الخديعة . لذلك حرصت زيورخ على الإجابة ببرقية طويلة أوضحت فيها أن الخلفة المعدنية تستعمل فى قياس حجم حيوان « الحلزون » . فكل حيوان يخرج من الخلفة بطلق سراحه . وهذه الخلفة تخضع للجهات الرسمية ويستخدمها اجباريا صيادو المنطقة بناء على تصريح رسمى يكلف حوالى ٣ فرنكات أما الخلفة نفسها فتباع بثلاثة فرنكات . عندما أصبح جميع هذا الخيوان تهديدا لانقراضه منع صيده لمدة ثلاث سنوات . ووقعت الجزاءات على الصيادين المخالفين أما باقى المقاطعات السويسرية فتجهاية هذا الخيوان الثمين لم تطبق القوانين المماثلة ولكن الأكثر تشددا .

وكان وصول هذه البرقية إيضاحا كافيا للأمور . ومع يوم جديد تبين أن الزائر الفرنسى لم يكن فى حاجة إذن إلى هذه الخلفة . لذلك كان من الأرجح أن هذه الخلفة المعدنية لا تخص سوى الصياد السويسرى . الشئ الذى يؤكد عبور النهر ويوضح فى نفس الوقت كذب أقواله .

وعندما طلب من الصياد السويسرى إبراز الخلفة الخاصة به . بحث عنها طويلا فى كل مكان دون جدوى . وهنا فاجأه رجل البوليس بسؤال : « ربما أنك ذهبت بعض الصدفة مثلا لتصيد فى فرنسا ؟ وهناك فقدت الخلفة ؟ » .

أنكر الصياد بشدة محاولا التخلص من الموقف منها الفرنسيين بأنهم هم الذين يخرقون الحدود ويأتون للصيد فوق

الأراضى السويسرية. ولكن أمام ضغط وكثرة الاستجوابات انهى الصياد بأن أفضى بكل مالديه. أصر أنه حتى لو ذهب للصيد فى فرنسا فإنه فى النهاية يسدد ما عليه. وهذا لأن الفرنسيين يحبون حيوان «الخزون» إلى أراضيهم وهذا بأن يضعوا له بعض أوراق السلطة الخضراء على الحدود. وأمام نظرات الدهشة التى أبداها رجال البوليس أخذ الصياد يؤكد أن الناس جميعا على علم بهذا الذى يحدث مرارا.

لم يكن فى إمكان البوليس أخذ هذا الاتهام ببساطة. لذلك توجه الضابط الفرنسى إلى مكان الحادث. وبعد عمليات البحث والتفتيش وفور عودته رفع سماعة التليفون ليتصل على الفور برؤسائه. إذ كان عليه إبلاغيا. ووسط الحشائش الكثيفة عثر على بقايا أوراق السلطة الخضراء الذابلة التى استخدمت بالفعل لجذب الحيوانات النادرة من سويسرا.

وهذه العملية تستغرق وقتا. إذ أن هذا الحيوان يتحرك بسرعة تتراوح بين ثلاثة وأربعة أمتار فى الساعة.

هذه التقارير الفرنسية الجديدة جاءت لتوضح الدافع وراء الجريمة. ولابد أن الصياد السويسرى قتل زميله الفرنسى لأنه يجذب تلك الحيوانات إلى الجانب الآخر من الحدود. وبعد المقارنة ثبت أن الطلقة التى استخرجت من جثة القتيل هى من نفس عيار بندقية الصياد السويسرى.

لم تستطع سويسرا التصدى لهذا الاستنتاج الجديد. إذ كان هناك ماهو أخطر. طبقا لتقرير الطبيب الشرعى ثبت أن الوفاة حدثت فى الساعة الثامنة صباحا. وأن الصياد السويسرى لم يأت لإبلاغ البوليس إلا بعد ظهر نفس اليوم. وهنا لم يكن أمام الصياد سوى الاعتراف.

اعترف الصياد أخيرا بجريمته. حكى أنه ذهب للصيد فى الساعة السابعة صباحا. ولكنه عندما لم يعثر إلا على القليل من «الخزون»... وبعد ساعة من العمل الشاق. قال لنفسه إنه لابد أن الصياد الفرنسى القذر قد جذبها كلها إلى أراضيه. فذهب إلى شاطئ النهر. وبلح بالفعل الصياد الفرنسى. فصرخ فى وجهه الصياد الفرنسى عبر النهر. وتأكد بنفسه من الدلو المملوء بالحيوانات الضخمة. أما هو فلم تبق له سوى عشرة فقط أخذت تتصارع فى قاع الدلو. وفوق هذا كله وقف الصياد الفرنسى يسخر منه. فقالا إنها سوف تحرمها من الحقيقة المعدنية. الشئ الذى دفع الصياد السويسرى لإخراج حقيبه المعدنية لقياسها والتأكد من صحة كلامه. وعندما ألقى الصياد السويسرى لالتقاط واحد من الحيوانات الضخمة منه الصياد الفرنسى وطلب منه العودة إلى الأراضى السويسرية إذ أن هذا «الخزون» فرنسى ينتمى إلى الأراضى الفرنسية. وأثناء ذلك النزاع رفع الصياد الفرنسى سلاحه فى وجه زميله الذى بلغ به الغضب حد إطلاق النيران على الصياد الفرنسى.

بعد فترة صمت طويلة مد رجل البوليس الورقة التى سجل عليها الاعتراف. وطلب من الصياد التوقيع فى نهاية الصفحة. وبصوت مرتعش أخذ الصياد يؤكد أنه بعد ارتكابه الجريمة شعر بالذنب. فإن الشجار على الصيد لم يكن يستحق هذه النهاية الشنعاء.

لذلك حاول الانتحار ولكن كانت بندقيته فارغة من الطلقات. فحاول الانتحار عن طريق العاز الذى، الذى لم يسبب له سوى الصداع الفظيع. ثم ذهب لجمع عش الغراب الساخن وبعد ظهر ما جمعه أكله كله.

ولكن من حسن حظه أنه كان صائما للأكل. ولم يعان إلا من المغص الحاد. هذه المحاولات الانتحارية الفاشلة لم يكن لها أى تأثير على هيئة المحكمة. وأثناء نظر القضية بين خبراء التسليح أن العيار النارى الذى أردى الصياد قتيلا. أطلق عليه من الجنب. الشئ الذى صحح بتغيير الدعوى وثبت أن الصياد السويسرى كان فى محاولة دفاع شرعى عن النفس. كما استطاع محامى الصياد السويسرى إثبات أن الرجلين قبل وقوع الحادث تقاسما زجاجة من الخمر. أى أن الرجلين وقعا تحت تأثير الخمر. الشئ الذى جعل المسئولية الاجرامية ليست كاملة.

يوم ٢٤ يناير عام ١٩٧٣ حكم على الصياد السويسرى بالسجن لمدة خمسة عشر عاما مع الشغل والنفاذ.

بقيت مشكلة واحدة هى اختفاء السلالة الفرنسية من حيوان «الخزون» وحمايتها. المشكلة التى تشغل السلطات حتى حتى اليوم. وطبقا لآخر المعلومات والأنباء. حتى الساعات الأخيرة من طبع هذا الكتاب لم يرد بعد فى وزارة الاسكان اسم «خزون».